أعظم الظلم الشرك بالله

الشيخ : أحمد بن حسن المعلم

استهلال :

لا يمكننا الحديث عن الظلم دون الإشارة إلى أعظم الظلم على الإطلاق ، وهو الشرك بالله كما أخبر المصطفى ﷺ ، وهذا الظلم مفتاح لأنواع كثيرة ومتعددة من الظلم البشري ، كيف لا وهو يتجرأ على الخالق العظيم جل وعلا . وفي هذه الإطلالة بيان لخطورة هذا الظلم على البشرية جمعاء ، فهل من من متعظ ومعتبر ؟

أولاً – الشرك وخطورته :

إن أعظم انحراف وقع في تاريخ البشرية هو الإشراكُ بالله ، وعبادةُ غيره معه ، ولذلك كانت أعظم غاية من إرسال الرسل ، هي : إزالة الشرك ، وإعادة الناس إلى التوحيد ؛ قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[٢]، وقال الرسول ﷺ: «بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمري ، ومن تشبه بقوم فهو منهم»[٣].

فهذه النصوص صريحة في أن أعظم غاية من إرسال الرسل هي : إزالة الشرك ، وإعادة الناس إلى التوحيد ، وما ذاك إلا لقبح الشرك ، وعظيم خطره على العباد في دنياهم وآخرتهم .

وتظهر تلك الخطورة من أوجه عدّة:

الوجه الأول : أنه سبب هلاك كثير من الأمم في الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾[٤]، فقد ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ لبيان السبب الذي أورد تلك الأمم هذه العاقبة السيئة ، وذلك السبب هو شركهم بالله تعالى ، قال ابن جرير: «﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ يقول: فعلنا ذلك أي الهلاك بهم ؛ لأن أكثرهم كانوا مشركين بالله مثلهم»[٥].

وقال ابن الجوزي: «كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ» المعنى : فأهلكوا بشركهم[٦] .

الوجه الثاني : أنه السبب في تردّي الإنسان من منزلة التكريم إلى منزلة الإهانة والتحقير، وإلى الاتصاف بأخبث الأوصاف ؛ وهو وصف النجس[٧]: قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٨].

قال السيد رشيد رضا–رحمه الله– في تفسير هذه الآية : «أي ليس المشركون كما تعرفون من حالهم إلا أنجاساً فاسدي الاعتقاد ، يشركون بالله ما لا ينفع ولا يضر ؛ فيعبدون الرجس من الأوثان والأصنام ، ويدينون بالخرافات والأوهام، ولا يتنزهون عن النجاسات ولا الأوثان ، ويأكلون الميتة و الدم من الأقذار الحسية ، ويستحلّون القمار والزنا من الأرجاس

نقلاً من كتاب (القبورية في اليمن – نشأتها وتاريخها) بتصرف يسير .

المعنوية ، ويستبيحون الأشهر الحرم ، و قد تمكّنت صفات النجس منهم حساً ومعنىً ، حتى كأنهم عينه وحقيقته ؛ فلا تمكنوهم بعد العام أن يقربوا المسجد الحرام» إلخ [٩].

وقال سيد قطب- رحمه الله- في الظلال: «يجسِّم التعبير نجاسة أرواحهم فيجعلها ماهيتهم وكيانهم ، فهم بكيانهم وبحقيقتهم نجس يستقذره الحس ، ويتطهر منه المتطهرون ، وهو النجس المعنوي لا الحسي في الحقيقة ، فأجسامهم ليست نجسة لذاتها ، إنما هي طريقة التعبير القرآنية بالتجسيم»[١٠].

الوجه الثالث : أنه يحبط الأعمال ، قال تعالى : ﴿ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١١] ، لقد جاءت هذه الآية في سياق ذكر الأنبياء والرسل ، الذين اجتباهم الله واصطفاهم ، فبيّن أن تلك الهداية وذلك الاصطفاء إنما هو بتوفيق الله تعالى ، ولو لم يصاحبهم ذلك التوفيق فوقعوا في الشرك ؛ لحبطت أعمالهم .

قال ابن كثير-رحمه الله- : «ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله، وهدايته لهم :﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تشديد لأمر الشرك وتغليظ لشأنه وتعظيم لملابسته»[١٢].

وقال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[١٣]، قال الإمام الألوسي- رحمه الله- : «وأياً ما كان فهو كلام على سبيل الفرض؛ لتهييج المخاطب المعصوم، وإقناط الكفرة ، والإيذان بغاية شناعة الإشراك وقبحه ، وكونه ينهى عنه من لا يكاد يباشره ، فكيف بمن عداه»[١٤].

الوجه الرابع : أنه يحول دون المغفرة ، قال تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[١٥] .

قال سيدقطب - رحمه الله - في كلامه على هذه الآية : «إن الشرك انقطاع ما بين الله والعباد ، فلا يبقى لهم معه أمل في مغفرة إذا خرجوا من هذه الدنيا وهم مشركون مقطوعو الصلة بالله رب العالمين . وما تشرك النفس بالله وتبقى على هذا

خطورة الشرك تكمن في أنه سبب هلاك كثير من الأمم في الدنيا ، وهو سبب في تردِّي الإنسان من منزلة التكريم إلى منزلة الإهانة والتحقير، وإلى الاتصاف بأخبث الأوصاف ؛وهو وصف النجس

الشرك حتى تخرج من الدنيا - وأمامها دلائل التوحيد في صفحة الكون وفي هداية الرسل- ما تفعل النفس هذا وفيها عنصر من عناصر الخير والصلاحية ، إنما تفعله وقد فسدت فساداً لا رجعة فيه ، وتَلِفَت فطرتها التي برأها الله عليها ، وارتدّت أسفل سافلين ، وتهيأت بذاتها لحياة الجحيم!»[١٦].

الوجه الخامس : أنه يحرم العبد من الاستفادة من شفاعة الشافعين[١٧] **يوم القيامة** ؛ الشفاعة الموجبة للجنة والمنجية من النار ، ففي البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قلت : يا رسول الله ، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال : «لقد ظننت يا أبا هريرة ألا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك ؛ لما رأيت من حرصك على الحديث ، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : لا إله الا الله خالصاً من قبل نفسه»[١٨] قال الحافظ: «قوله : «من قال لا إله الا الله) احتراز من الشرك»[١٩] قال ملا علي القاري في (مرقاة المفاتيح) : «أي لا يشوبه شك ولا شرك ، ولا يخلطه نفاق وسمعة ورياء ... وقيل : أسعدُ هنا بمعنى أصل الفعل ، وقيل بل على بابه وإن كل أحد يحصل له سعادة شفاعته ، لكن المؤمن المخلص أكثر سعادة ، فإنه e يشفع في إراحة الخلق من هول الموقف ، ويشفع في بعض الكفار كأبي طالب في تخفيف عذاب النار»[٢٠] انتهى محل الغرض منه ، وهو يفيد ما عنونّا له من أن المشرك محروم من الشفاعة المنجية من النار و الموجبة للجنة.

الوجه السادس: أنه أعظم الموانع من دخول الجنة ، وأعظم أسباب الخلود في النار ، قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾[٢١].

قال السيد رشيد رضا -رحمه الله- : «أمرهم عليه السلام بالتوحيد الخالص ، وقفّى عليه بالتحذير من الشرك ، والوعيد عليه ببيان أن الحال والشأن الثابت عند الله تعالى هو أن كل من يشرك بالله شيئاً مامن ملَك أو بشر أو كوكب أو حجر أوغير ذلك ، بأن يجعله نداً له أو متّخِذاً به ، أو يدعوه لجلب نفع أو دفع ضر ، أو يزعم أنه يقرِّبه إلى الله زلفى فيتخذه شفيعاً ، زاعماً أنه يؤثر في إرادة الله تعالى أو علمه ، فيحمله على شئ غير ما سبق به علمه وخصصته إرادته في الأزل - من يشرك هذا الشرك ونحوه فإن الله يحرِّم عليه الجنة في الآخرة ، بل هو قد حرَّمها عليه في سابق علمه ، وبمقتضى دينه الذي أوحاه إلى جميع رسله ، فلا يكون له مأوى ولا ملجأ يأوي إليه إلا النار دار العذاب والهوان ، وما لهؤلاء الظالمين لأنفسهم بالشرك من نصير ينصرهم ، ولا شفيع ينقذهم ﴿مَنْ

ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[٢٢] ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[٢٣] فالنافع رضاه : ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾[٢٤] وشر أنواعه الشرك»[٢٥] انتهى المقصود منه .

ثانياً : الوثنية الوعاء الذي يحوي الشرك:

إذا عرفت الشرك وخطورته في الدنيا والآخرة ، فاعلم أن الوثنية هي الوعاء الذي يحوي الشرك ، والجسم الذي يتجسَّد ويسري فيه ذلك الروح الخبيث - الشرك - فالأصنام والأوثان والهياكل ما هي إلا مظاهر يتجسد فيها الشرك الذي يتعلق في الحقيقة بمخلوقات أخرى اعتقدها المشركون ، وتعلقت بها قلوبهم ومنحوها صفات الآلهة .

يقول الفخر الرازي-رحمه الله تعالى- في تفسيره عند قوله تعالى في سورة يونس : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٢٦] : «... (وأما النوع الثاني) ما حكاه الله تعالى عنهم في هذه الآية ، وهو قولهم : ﴿هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ فاعلم أن من الناس من قال : إن أولئك الكفار توهموا أن عبادة الأصنام أشد في تعظيم الله من عبادة الله سبحانه وتعالى ، فقالوا: ليست لنا أهلية أن نشتغل بعبادة الله تعالى ، بل نحن نشتغل بعبادة هذه الأصنام ، وأنها تكون شفعاء لنا عند الله . ثم اختلفوا في أنهم كيف قالوا في الأصنام أنها شفعاؤنا عند الله؟ وذكروا فيه أقوالاً كثيرة :

فأحدها: أنهم اعتقدوا أن المتولي لكل إقليم من أقاليم العالم روح معين من أرواح عالم الأفلاك؛ فعيّنوا لذلك الروح صنماً معيناً واشتغلوا بعبادة ذلك الصنم ، ومقصودهم عبادة ذلك الروح ، ثم اعتقدوا أن ذلك الروح يكون عبداً للإله الأعظم ومشتغلاً بعبوديته .

وثانيها : أنهم كانوا يعبدون الكواكب وزعموا أن الكواكب هي التي لها أهلية عبودية الله تعالى ، ثم لما رأوا أن الكواكب تطلع وتغرب وضعوا لها أصناماً معينة واشتغلوا بعبادتها ، ومقصودهم توجيه العبادة إلى الكواكب .

وثالثها : أنهم وضعوا طلسمات معينة على تلك الأصنام والأوثان ، ثم تقرَّبوا

> **الشرك يحول دون المغفرة ، قال تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾**

إليها كما يفعله أصحاب الطلسمات.

ورابعها : أنهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم ، وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل ، فإن أولئك الأكابر تكون شفعاء لهم عند الله تعالى . ونظيره في هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر ، على اعتقاد أنهم إذا عظموا قبورهم ، فإنهم يكونون شفعاء لهم عند الله.

وخامسها : أنهم اعتقدوا أن الإله نور عظيم ، وأن الملائكة أنوار ؛ فوضعوا على صورة الإله الأكبر الصنم الأكبر ، وعلى صورة الملائكة صوراً أخرى .

وسادسها : لعل القوم حلولية ، وجوزوا حلول الإله في بعض الأجسام العالية الشريفة»[٢٧].

وما ذكره الرازي أمر منطقي ، إذ لا يُعقَل أن الإنسان بسمعه وبصره وعقله ، ينحتُ صنماً أو يصنع وثناً بيده - وهو يعلم مادته ومن أين أُخذ - ثم يزعم أن هذا الصنم أو الوثن هو الذي يخلق ويرزق ، وهو الذي ينفع ويضر ، هذا لا يكون أبداً . فلم يبقَ إلا ما ذكره الرازي من أنهم يرون أن هذه التماثيل والأصنام هي رموز لمخلوقات معظَّمة تستحق العبادة لقربها من الله ، ومنزلتها عنده كما يفعل القبورية بقبور معظَّميهم . وبهذا تعلم أن هذه الظاهرة إنما هي جسد يحتضن الشرك الذي هو لها بمنزلة الروح.

الهوامش :

١- النحل : ٣٦.
٢- الأنبياء : ٢٥ .
٣- رواه أحمد في المسند(١٢١/٧ - ١٢٢) رقم(٥١١٤-٥١١٥)، وصححه أحمد شاكر كما صححه الشيخ الألباني في الإرواء (١٠٩/٥-١١٠) (رقم ١٢٦٩).
٤- الروم : ٤٢.
٥- تفسير الطبري المسمى (جامع البيان في تأويل القرآن) (٣٣/٢١).
٦- زاد المسير للإمام ابن الجوزي (١٥٤/٦).
٧- هو في الأصل (القذر) كما في معجم مقاييس اللغة لابن فارس(ص١٠١٣) ، وإنما وُصفوا بذلك مبالغة في تحقيرهم .
٨- التوبة : ٢٨ .
٩- تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا (٢٧٥/١٠).
١٠- في ظلال القرآن ، سيد قطب (١٦١٨/٣).
١١- الأنعام : ٨٨ .
١٢- مختصر ابن كثير ، للشيخ محمد نسيب الرفاعي(١٣٩/٢).
١٣- الزمر: ٦٥ .
١٤- روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، للشيخ محمود الألوسي .
١٥- النساء : ٤٨ ، ١١٦ .
١٦- الظلال (٦٧٨/٢) .
١٧- الشفاعة : (السؤال في التجاوز عن الذنوب ممن وقع منه جناية) انظر: (التوقيف على مهمات التعاريف)(ص٤٣٢) للشيخ محمد عبد الرؤوف المناوي ، والشافعون : جمع شافع وهو صاحب الشفاعة . انظر: المعجم الوسيط(٤٨٧/١) مجمع اللغة العربية (١٤١٠هـ=١٩٩٠م) طبع المكتبة الإسلامية إستانبول .
١٨- البخاري مع الفتح (٤١٨/١١) كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار .
١٩- فتح الباري شرح صحيح البخاري ، للحافظ أحمد بن علي بن حجر (١٩٤/١) .
٢٠- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ، للشيخ مُلا علي القاري.
٢١- المائدة : ٧٢ .
٢٢- البقرة : ٢٥٥.
٢٣- الأنبياء : ٢٨.
٢٤- الزمر : ٧ .
٢٥- تفسير المنار (٤٨٣/٦) .
٢٦- يونس : ١٨.
٢٧- التفسير الكبير المسمى (مفاتيح الغيب) للإمام فخر الدين الرازي (٥٩/١٧-٦٠).